السبت 04 أغسطس 2012

مصر ومصالحة مع النفس

د. شريف خليفه
28 أكتوبر, 2011

تسعى الأمم على مر العصور إلى تحقيق مصالحتها مع النفس. ومصالحة الأمم مع النفس هى محاولة للإهتداء إلى ملامح هويتها بما يتيح لها تبنى القرارات المتسقة وقسمات الشخصية الوطنية، والمواقف المتوافقة وانتماءاتها الحضارية. وهى كذلك إدراك لحدود الإمكانيات ومدى القدرات التى تتيح لأمة الإضطلاع بدور ما. فلأى أمة شخصية تتشكل نتاجاً لتجاربها التاريخية، وهوية تتبلور من مكوناتها الثقافية. كما لكل أمة دور إختصته بها الأقدار، وفقاً لموقعها وإمكاناتها، لتضطلع به فى محيطها. ولتحقيق مصالحة حقيقية مع النفس، يتعين على الأمة التعرف على هويتها والإعتراف بأبعاد دورها. وتأتى مصر ما قبل الثورة كمثال لحالة من الإغتراب عن الهوية والإبتعاد عن الدور بعدما تعرضت له من محاولات تحوير لملامحها إمتدت لأمد طويل. حتى أتت اللحظة التى نظرت فيها الأمة إلى المرأة ولم تتعرف على إنعكاساتها فيها. وجاءت لحظة الإدراك تلك ثورة على محاولات تبديل صورة الأمة بما لا يتسق وما تألفه عن نفسها. وبينما تسعى مصر الثورة لمصالحة مع النفس تستعيد بها سماتها ودورها، تبقى بعض الامور الجديرة بالإعتبار:

أولاً: تطفو فى الأونة الأخيرة على سطح الحياة السياسية المصرية أسئلة الهوية. وتفرض تلك الأسئلة نفسها بقوة فى أتون النقاش المحتدم بين كافة التيارات السياسية. ويبدو أن الفرصة باتت سانحة لأن يدلى الكل بدلوه فى فترة بناء يتخللها إصدار دستور وتأسيس لنظام الدولة ومؤسساتها. ومن الطبيعى فى تلك الأوقات المفصلية أن تثار أسئلة هوية الدولة التى تصاغ على أساسها الدساتير وتبنى عليها توجهات الدولة وتعتمد مرجعيتها. وتبادر كافة التيارات السياسية بطرح رؤيتها فى إطار صراع دائر بين مناد بالدولة المدنية وداعٍ إلى إعتماد مرجعية إسلامية. وذلك دون إدراك الطرفين أن تحديد ملامح الهوية ليست إختيار من قبل نخب تصدت للرد على الأسئلة المثارة. كما أنها ليست إنتقاء لما يرى كل طرف أنه الأمثل. ولكنه يأتى بالضرورة تعبيراً عن حقائق قائمة على الأرض. ومن الضرورى لإتمام المصالحة مع النفس أن تتاح للأمة الإختيار الحر لما تعرفه أصدق تعبير عن هويتها ودون وصاية من أى من طرفى الصراع الدائر. ذلك لأن فرض أى من الطرفين تصورات لا تتوافق وقناعات الأمة قد يؤدى إلى إستمرار محاولات التصالح مع النفس فى المستقبل.

ثانياً: إن هوية الأمم تتبلور من تجارب ماضيها وملاحم تاريخها. تلك التجارب التى ساهمت فى إنتاج وإنضاج ملامح شخصيتها على مر القرون. لذلك فإن تساؤلات الهوية لا يمكن الإجابة عليها بالإقتباس من تجارب الآخرين أو بإستعارة آرائهم. وذلك مع التأكيد على أهمية الإستفادة منها بقدر ما يناسب الواقع. وفى مصر، باتت تساؤلات الهوية تناقش فى إطار معضلة العلاقة بين الدين والدولة، وفى خضم الجدل الدائر حول الدولة المدنية والدولة الدينية. وتلك معارك غير مألوفة لأمة لم يعرف تاريخها المخاض الذى مرت به أمم أخرى من أجل الإنعتاق من تدخل رجال الدين فى شئون الدولة. وبالتالى تأتى المعركة على عناوين الدولة غريبة على ذاكرة الأمة ووعيها. ولن تكون المصالحة المنشودة مع النفس مكتملة دون تفهم المتصدين لتساؤلات الهوية بأن الطريق إلى المستقبل يرتبط بإستيعاب الماضى دون أن يكون بالضرورة رهينة له.

ثالثاً: إن المتصدين لأسئلة الهوية يتعين عليهم الإبتعاد عن تطويع المسألة لإستمالة المصوتين أو لإقصاء أطراف منافسة. فمن ناحية، تستدعى بعض التيارات شعارات لمغازلة العواطف الدينية دون برامج واضحة ومحددة تستلهم مضمون المرجعية التى يدعون الإنتماء إليها. وذلك محاولة لإستمالة المصوتين من خلال الإيحاء بالتعبير عن قيم المجتمع دون الحاجة لبذل الجهد لطرح حلول لمعالجة قضاياه. ومن ناحية أخرى، يتهم البعض التيارات الإسلامية بالتوظيف السياسى للدين إيذاناً بتباشير دولة دينية. وذلك فى محاولة للتحذير والحد من إنتشار تيار يبدو للبعض أن له قاعدة شعبية ممتدة. ولذلك يتعين على الطرفين الإدراك أن مسألة الهوية ليست أداة لتحقيق مكاسب سياسية، بل محاولة حقيقية من قبل الأمة للتصالح مع النفس وأساساً للإستقرار فى المستقبل.

رابعاً: إن التصدى لأسئلة الهوية تتطلب القدرة على التواصل مع من تمثله، والتعبير بصدق عما تدعى تمثيله. فمن ناحية، تبدو التيارات الداعية لدولة مدنية غير قادرة على التواصل مع من يدعون التحدث باسمهم. ويتضح ذلك جلياً فى العجز عن التعبير عن أفكارهم والإدلاء بأطروحاتهم دون إثارة الهواجس من آراء تؤدى إلى إتساع الفجوة بينهم وبين المجتمع. ومن ناحية أخرى، تبدو سلوكيات بعض أطياف التيارات الإسلامية تأكيداً على الصورة النمطية للإسلاميين. وهى صورة تبرز خلط الأولويات من خلال التركيز على قضايا تتعلق بالأخلاقيات المجتمعية واختزال رؤاهم فى تطبيق الحدود. وذلك بديلاً عن التوجه الطبيعى للمرجعية التى يدعون الإنتماء إليها نحو معالجة القضايا الملحة التى تواجه المجتمع. ولن تكون المصالحة مع النفس مكتملة حتى يتمكن

موضوعات متعلقة

«وقفة» مع «مواقف» زعماء الناصرية الأبطال!
التفاصيل ...

صورة الصحابة بين السنة والشيعة
التفاصيل ...

المسلمون في بورما ... لا بواكي لهم
التفاصيل ...

تصنيع الفشل بين التعمد والتردد
التفاصيل ...

استراتيجية تشبيك الصالحين
التفاصيل ...

عن عادل حسين
التفاصيل ...

موت عمر سليمان ...حلقة في دروس ربانية
التفاصيل ...

مثلث الريبة في المشهد المصري
التفاصيل ...

أحلام يوليو وكوابيس يناير
التفاصيل ...

تجاره وسماسره
التفاصيل ...

المتصدين لتلك التساؤلات من التواصل مع من يدعون تمثيلهم، ومن التعبير الصادق عما يدعون تمثيله. وحتى لا يكون الجدل عقيماً لا يصل إلى المعنيين به ولا يعبر عن المراد منه.

خامساً: وكما أن المصالحة مع النفس هى محاولة لتحديد مقومات الشخصية الوطنية، فهى كذلك إدراك لإمكانيات الأمة التى تقرر حدود الدور الذى يمكن أن تضطلع به. ولطالما نظرت مصر إلى نفسها وكأن الأقدار إستدعتها لتلعب دوراً إقليمياً. ويأتى ذلك تسليماً بأن حماية المصالح المصرية تتحقق بدور تضطلع به فى محيطها وأن ضمان أمنها القومى يرتكز على نفوذ يمتد إلى ما هو أبعد من حدودها. وهو دور يستند إلى خصوصية الموقع والمكان، كما يعتمد على قدرات الأمة وإمكاناتها. وقد أثر النظام البائد ممارسة سياسة لا تدرك أهمية الموقع وأبعاد الدور، فتحسرت الأهمية وبهت النفوذ. حتى أتت اللحظة التى تسعى فيها الأمة إلى المصالحة مع النفس بالقيام بدور يتفهم خصائص الأمة ويدرك خصوصية الموقع. وذلك مع الإدراك بأن كل دور فى المنطقة يتطلب مواقف لها تبعات. ويتضح ذلك جلياً فيما يتعلق بملفات القضية الفلسطينية والعلاقات مع إسرائيل والتعامل مع القوى الدولية كالولايات المتحدة الأمريكية. لذلك تتطلب المصالحة الحقيقية مع النفس الإختيار الحر للأمة لتبنى المواقف التى تتفق مع رؤيتها لطبيعة وحجم دورها، وتحديد مدى قدرتها على تحمل التبعات الناجمة عنها.

وأخيراً: فإن محاولات التصالح مع النفس لا يمكن أن تتجاهل أن الثورة فى مصر أصبحت تفرض مسئوليات إضافية على الدور الإقليمى، كما تعد فرصة مثالية لإمتداد الدور المنشود فى المنطقة. فإن المناضلين من أجل الحرية والكرامة لا يسعهم إلا أن يساندوا كل حراك إنسانى فى سبيل القيم نفسها التى ضحوا من أجلها. وهى مسئولية لا يمكن أن يتنصل منها المبادرون بالثورة فى مواكبة نسائم ربيع العالم العربى. وبما يعنى إتساع مدى الدور وأهدافه ليتعدى حماية المصالح إلى محاولة إنجاز نموذج يحتذى فى الثورة وفى بناء الدولة. وهو ما يضمن فرصة لإمتداد التأثير إلى ما هو أبعد مما يمكن تحقيقه بالإعتماد فقط على المرتكزات والأدوات التقليدية لإدارة العلاقات الخارجية.

---

*أستاذ الإقتصاد بجامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية

Share / Save
طباعة
أضف تعليقا
الأسم